# طيور المواقيت وحركية الصورة الشعرية في ديوان: الأبجدية والمدارات الأخر

بقلم: هيثم الحاج علي*
مصر

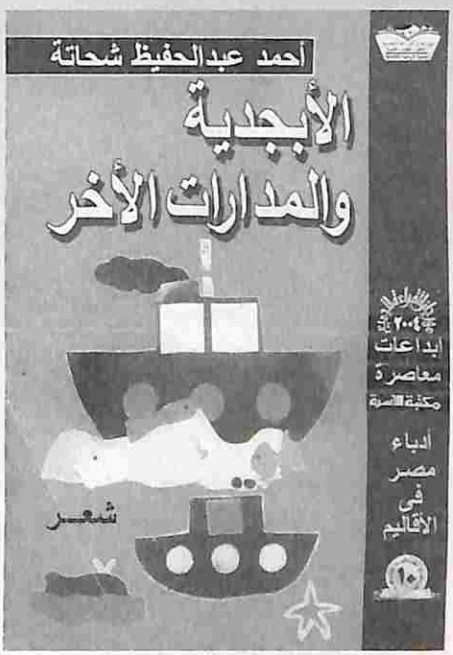


**يعبر الشعر عن رؤية إبداعية للكون، رؤية تستخدم اللغة في صياغة موقف الشاعر صياغة مجاوزة، وهي ذات الصياغة التي تهدف إلى توسيع الدائرة اللغوية، وإنتاج لغة جديدة، وهو الأمر الذي يجعل من وظيفة الشاعر وظيفتين متجادلتين، إحداهما تتعلق باستخدام اللغة بوصفها أداة للتعبير عن فرادة التجربة، والأخرى تهدف إلى التطوير الجذري لهذه الأداة وآليات استخدامها، وربما يكون الحكم على أهمية أية تجربة نابعاً - في نقاط ارتكازه الأهم - من النظر إلى هذين الشقين الوظيفيين في البداية. وهو النظر الذي لا يغفل موقع التجربة الإبداعية بناء على هذه الاستخدامات، من باقي تجارب جايلتها أو جادلتها.**

وعلى هذا الأساس يمكن النظر إلى الشاعر أحمد عبدالحفيظ شحاتة بوصفه واحداً من الأصوات الشعرية المهمة من حيث محافظته على اتجاه ثابت لأدائه الشعري، وتطويره، وهو الاتجاه الذي يمتلك مقوماته الواضحة التي تظهر داخل نصوصه وتجعلها ذات سمت خاص، ونكهة متميزة، بحيث تبدو تجربة الشاعر واحدة من التجارب التي تتعمد غرس جذورها في أرضية تراثية، لكنها لا تحد مداها بهذه الأرضية، بل تجعلها منطلقاً لها للولوج إلى حقائق لم يرتدها السابقون، وهو ما يجعله يرتاد آفاقاً توسع من مدلولات هذا التراث، وهو الأمر الذي يجعل من النظر إلى المكون التراثي في هذه التجربة أمراً ذا أهمية بالغة.

ونعني بالمكون التراثي ذلك الجانب الذي يمكن ملاحظته في اختيار الألفاظ، حيث يختار الشاعر ألفاظه بدقة شديدة معتمداً على تلك النوعية المهجورة

* مدرس مساعد بكلية آداب حلوان

وغير المستخدمة في الواقع الراهن على اختلاف مستوياته وكأننا به يجوب القواميس بحثاً وحرثاً، ليخرج منها بهذه الألفاظ التي تشعر بها الأذن المعاصرة، إنها الألفاظ المعجمية بامتياز والتي تنتشر في هذا الديوان، بل لا نغالي إذا قلنا إنها تنتشر في كل نصوص تجربة أحمد عبدالحفيظ شحاتة بصورة لا يمكن إغفالها، أو إغفال التساؤل الأهم بصددها.

هل الجنوح نحو ألفاظ مهجورة يؤثر سلباً أم إيجاباً على التجربة الشعرية؟

غير أنه للإجابة على مثل هذا التساؤل يستلزم الأمر النظر إلى الكيفية التي يتعامل بها الشاعر مع هذه الألفاظ وطريقته في استنطاقها لدلالات مغايرة لدلالاتها المعجمية، إن الشاعر يقف ههنا موقف المنتج للدلالة، والذي لا يقتصر على استخدام دلالة معجمية بل يتعداها إلى جعل تلك اللفظة المهجورة مستخدمة في إطار تضايفها وتجاورها مع ألفاظ أخرى لتسطع الصورة الشعرية مؤكدة الحال الشعري الذي تعبر عنه تجربته.

ومن الضروري النظر - كذا - إلى مكون تراثي آخر يؤثر في بناء النص الشعري في ديوان «الأبجدية والمدارات الأخر» لأحمد عبدالحفيظ شحاتة، ألا وهو الاعتماد على السوائر والشوارد بوصفها متكآت مفصلية،

أحمد عبدالحفيظ شحاتة

يعتمد عليها الشاعر في تحويل مسار النص بحيث لا يبدو ذا اتجاه واحد أو سرعة ثابتة، وبصورة تؤكد على كونها لازمة لغوية مموسقة تسهم في خلق إيقاع دلالي ممتد عبر النص وهو ما يمكن أن نلحظه في قصيدة «مداولات الخرائط والظل» حيث يبدو التساؤل المكرر بؤرة للولوج إلى عالم الملاحظة الحسية القائمة على استخدام الصوت والصورة.

**فلمن تتعرى سواحل هند**
**وترمي ضفائر أشجارها؟**

إن هذا التساؤل يقوم بدور أساسي في تحويل شكل التركيب الشعري المعتمد على تراكم الصور والمجردات حين يقول مثلها:

**ترج السموات روحي**
**وترسل قلبي**
**شبابة**
**داخل بالخروج / الدخول/**
**الخصام/ الوئام.**

ليتحول الإيقاع الدلالي والتركيب بعد التساؤل:

**تلم مواقيتهم شهباً من دمى**
**ولها مالها**
**صولجاناتٌ**
**وصنوج صباها**
**طوالعها والخوارق**

حيث تبدو الصورة أكثر امتلاءً بالحسي. وحيث يبدو للصوت وجوده الحيوي المفارق. خاصة عندما يظهر في شكله المفخم ذي الانتشار الواسع في تكرار أصوات الصاد والطاء والجيم. إن هذا التركيب الذي نراه بعد التساؤل يؤدي دوره الأكبر عند مقارنته بالتركيب الأشد هدوءاً وتجريداً فيما قبله.

غير أن التساؤل - نفسه - عندما يتكرر مؤكداً وظيفته بوصفه لازمة لغوية فإنه في الوقت ذاته يؤدي إلى تحول آخر في الطريقة التي ينبني بها التركيب فيقول بعدها مباشرة:

**سهول تطارد بالغيم أصداؤها**
**وغمامٌ**
**تُمزق أثوابه بالسهول**
**ولا شيء.. لاشيء**

ليتحول الصوت الزاعق إلى همس، والصورة الصارخة الألوان إلى صورة يسيطر عليها الغيم فتبهت ألوانها شيئاً فشيئاً لتصير إلى ذبول أخير يتوافق مع انتهاء النص.

ينطلق شاعرنا من اللفظة - إذن - ليجوب بها عالمه الخاص، وليمنحها حياة جديدة مستمدة من وجودها في النص، حتى ليبدو نصه في بعض الأحيان محملاً بما ينوء به من ذلك النوع من الألفاظ، بيد أن التكوين المميز للصورة يواري هذه السمة لتبدو على السطح المعالجة المبتكرة للخيال الشعري.. إنه قد ينافي - أحياناً - الشروط الواجب اتباعها في اللفظة الشعرية من حيث عدم كونها غريبة، لكن تلك المنافاة تفتح باباً جديداً لتعامل خاص مع اللغة عموماً، تلك اللغة التي تنبع من الذات لكنها لا تقف عند حدودها فتشع علاقاتها الخاصة.

**أنت لم تنكر الدل**
**جبت المدائن، بحر الرمال**
**تكسرت، قمت، انثنيت،انشطرت**
**تلاشيت، ذبت، تجمعت في جذوة**
**قبلة، جمرة**

ونلاحظ في هذا المقطع كيف يمكن أن تنبني الصورة الشعرية على الحركة من خلال تراكم الأفعال وتتابعها في صورة تنتفي معها (استاتيكية) الصورة الشعرية، ليصبح الفعل لوناً، خيالاً تتحمله الحالة الشعرية، وإذا كان الفعل يحمل في طياته زمناً، وسردية لا يمكن إغفالها تضفي حركة واضحة على القصيدة فإن مما لا يجوز إغفاله - كذا - تلك المقاطع الحافلة بالسرد والتي تتخذ في نصوص أحمد عبدالحفيظ شحاتة مكاناً ذا أهمية كبرى، فهي مفتتح النص ونقطة بدايته المشعة لتجربته في «مداولات الخرائط والظل» يقول:

**من الباحة الضيقة**
**خرجت وألقيت ظلي**
**طاردته ومررت عليه**
**فأدبر**
**ثم انمحى**

حيث تبدو عناصر السرد واضحة من شخوص: الأنا، والظل، ومكان من الباحة الضيقة، وأزمة متصاعدة ظاهرة في توالي الأفعال، وانفراجة أخيرة، أو لحظة تنور تبدو في انمحاء الظل. لكن هذه المقطوعة السردية - وإن قامت بفعل إبداعي في حد ذاتها - ستبدو أهميتها بما تنتجه من علائق مع باقي النص حيث يبدو الأنا في حضوره المهيمن، والجدلي مع الظل ممتداً على مدار النص.

**فضائي علقته في غيابي**
**يفر من الحلم للحلم**

ليصبح انمحاء الظل معادلاً للغياب الذي يصير متكأً لصياغة هذا الغياب/ الفراغ شعراً «أرجوزة من عجين الفراغ».

إن للجملة الفعلية في نصوص شاعرنا سحرها الأكيد الذي يبدو في منح النص الشعري حياته الخاصة، وفي قصيدته «فضاء» خير دليل على هذه الحياة المتفردة.

**الفضاء الذي لوحته البراكين**
**يفتح كل مساء**
**حقائب غيم**
**معلقة في جدار النشيد**
**يدخل في معطف الذكريات**
**غريباً تشاكل في غرفة الروح**
**ينشر فضته**
**ينثني بالممر**
**يحدق في اللافضاء**

إن هذه الصورة التي يصوغها الشاعر معبرة عن الفضاء تبدو في حركتها الحية راسمة ذلك «الفضاء» (لاحظ الدلالة) في جدليته مع باقي عناصرها لتتصاعد تلك الجدلية واصلة في النهاية إلى قمتها حين يحدق الفضاء في اللافضاء.. لتبدو لنا أهمية تقنية التشخيص التي يعتمدها الشاعر - في معظم نصوص الديوان - لإسباغ الحياة على المجردات التي ينطلق منها خيال تجربته، والتي يبدو عالمه الشعري من خلالها ذلك العالم الذي ينطلق بالضرورة من غير المحدد ليصل في النهاية إلى تحديد ما ليس بمحدد دون تقييده على إطار واحد.

إن دلالة الفضاء والفراغ على مدار الديوان توحيان بامتلاء دلالي.

**فالفراغ**
**فضاءين بينهما برزخ**

(قصيدة : والأغاني سفر).

وهذا الامتلاء الدلالي ينصبغ بمكونات عالم القصيدة الموغل في الخصوصية الذي يعتمد - كما أسلفنا - على سلب القصيدة

بسكونيتها وتحويلها إلى صورة حركية معتمدة على توالد الأفعال ليصبح الخيال الشعري متعلقاً بإيقاع زمني ناتج عن بنى سردية متضمنة داخل صورة شديدة التركيب.

غير أن الإشارة إلى الإيقاع الزمني في نصوص أحمد عبدالحفيظ شحاتة تجعلنا نلتفت إلى أهمية ملاحظة دلالة الوقت المتكررة في كل نصوص الديوان، وبداية من العنوان الذي تبدو فيه علاقة اللغة (الأبجدية) بالزمن - مشاراً إليه فيما يؤدي إلى الإحساس به (المدارات) إلى تكرار مشتقات جذر (الوقت) في غالبية النصوص ولنلاحظ:

- باضت مواقيتهم حجراً في يديك
- وبي مزهر الوقت منغرس
- أنا مزهر الوقت
- تلم مواقيتهم شهباً من دمي

(قصيدة: مداولات الخرائط...)

- تخرج عن رصيف الوقت

(قصيدة: الأبجدية والمدارات...)

- الفضاء الذي خبأته المواقيت
- كالنار تحت الرماد

(قصيدة: فضاء)

- أصداء المواقيت
- له أرخبيل الحداء

(قصيدة: مداخلات شجرة الحداء...)

- يتهدج موج المواقيت في زيتها

(قصيدة: وقال لي البحر...)

- طيور المواقيت صداحة

(قصيدة: الوحي...)

وهكذا بتواتر واضح لا يمكن إنكاره، يضاف إليه المفردات الدالة على الزمن أو أجزائه أو قياسه، ليبدو لعامل الزمن -الوقت أهميته الخاصة في تكوين عالم الديوان الشعري، من حيث هو إشكالية الذات الشاعرة مع عالمها، تلك الإشكالية التي تحاول هذه الذات التعامل جمالياً معها وتشكيلها لغوياً، وهو ما يتضافر مع الاستخدام الشعري المميز للأفعال، حتى ليبدو العنصر الأهم - حسبما أرى - في هذه التجربة هو صراع الذات مع الزمن وما ينتج عن هذا الصراع من تجارب.

وككل فضاء شعري، تبزغ نجمة لها من الخصوصية مالها، وهكذا ففي فضاء هذا الديوان تنفرد بوجودها قصيدة «الوحي»، لا من حيث فرادة الموضوع فقط، ولكن من حيث الرؤية والمعالجة، حيث يلتقط الشاعر لحظة الوحي القرآني الأول، ويقدم رؤيته التشكيلية الممتدة من خلال مفردات هذه اللحظة في تكوين بديع يتفاعل مع كل ما يختلج داخل هذه اللحظة المتفردة، وعلى الرغم من أن الموضوع متأصل في التراث، فإن الشاعر يقدم شكلاً حداثياً في قصيدته يعتمد على تكوين خاص للتركيب الشعري، وهو الجمع الذي نرى فيه ريادة واضحة لشاعرنا، حين استطاع التعبير بشفافية واضحة، وبتشكيل جمالي تمتزج فيه عناصر القصيدة لتكوّن كلاً متسقاً عن لحظة طالما حبست داخل إطار التعبير التقليدي، فهو لا يحبس تعبيره داخل التفاصيل فقط،

بل يرى مقدمات هذه اللحظة في الكون:

**نفحة من عرار ندى الفجر**

**دفاقة**

**وبحار خطى الضوء فيها**

**تمور**

**طيور المواقيت صداحة**

فاللحظة التي يلتقطها وإن كان لها أثرها الكبير على البشرية كلها، فإنها سيدة الوقت الزمن، ولذا فهي جزء وثيق الصلة بتجربة الشاعر، بالقدر الذي يجعلها زمناً خاصاً تتوقف فيه إشكالية صراع الذات الشاعرة مع الزمن، ليتوقف الزمن - كذلك - معلناً سيادة هذه اللحظة عليها لأنها الحد الفاصل الذي يبدو معه الكون فرحاً يموج بالشفافية:

**الملائك تياهة**

**والنسائم في الأرج الكوثري**

**ملاب يرق**

وتمهد هذه المقدمات للتقرير التالي لها والذي يبدو مستخدماً لغة شديدة الهدوء والتأني في تكوينها:

**فالبريد السماوي**

**للأرض ينزل**

**بالنور للنور**

**ناموسه في حراء**

ويجب أن نلاحظ البراعة في استخدام التشاكل اللفظي لتكوين الاستعارة التي تضفي جمالاً على التركيب معتمدة على حروف الجر في (بالنور للنور) وهو ما يتكرر في التعبير: فالنداء من الحق بالحق (اقرأ).

غير أن ما يميز هذه القصيدة عن أخواتها اللاتي تعالج الموضوع نفسه هو اتساع الرؤية، وشفافية التكوين لتبدو القصيدة نفسها علامة مهمة في تجربة أحمد عبدالحفيظ شحاتة، لا نغالي إذا قلنا: إنها ذات صوت خاص جداً نتج عن صدورها رؤية أصيلة أدخلت الذات الشاعرة في الرؤية، وإن لم تتشخص واضحة على مدار النص:

**الأماسي ترهف للصبح آذانها**

**والرمال**

**بجوف الصحارى**

**تسيل**

انتظاراً لدفقة الوحي الأولى التي ستغير وجه العالم، ذلك الانتظار الذي يتبدى واضحاً في تكرار اللازمة «أرحنا بها يا بلال».. وعلى الرغم من أن القصيدة لم تتخلص تماماً من المباشرة التي عولج بها هذا الموضوع في قصائد سبقتها على مدار أربعة عشر قرناً فإن مما يجب ملاحظته أن الشاعر لم يقف عند حدود سطح تعبيراته المباشرة، بل أتت له طائفة ذائبة في لحمة تجربته حتى إن القارئ لا يلاحظ مباشرة في ذلك، بل هو التعبير الشفيف عن لحظة إلهية السمات - يقول:

**طيور المواقيت تصدح: ماذا؟**

**هو الله رب السموات والأرض**

**يوحي**

**إلى خاتم الأنبياء.**

يتبدى إذن صوت أحمد عبدالحفيظ شحاتة صوتاً خاصاً يسهم إسهاماً واضحاً ومهماً في تكوين المشهد الشعري العربي، عن طريق الثبات القوي على أرضية تراثية، تتفاعل بجلاء مع مكونات الحاضر لتطلق تجربته الجمالية الخاصة، التي على الرغم من إمكانية اتصالها بتجربة الحداثة العربية - فإنها لا تنبت عن تراثها بل تعتمد على هذا التراث في إنتاج قصيدة ترقى إلى انتمائها إلى دائرة القصيدة العربية. وإذا كنا نرى في الربط الإنجاز الحقيقي للشاعر أحمد عبدالحفيظ شحاتة، فإن تجربته الجمالية - كذلك - قد أسهمت في تطوير اللغة التي يستخدمها عبر الاتكاء على محاولته استنطاق اللفظة بدلالات غير محدودة، وعبر إسباغه على صورته الشعرية حركة تمنح الصورة حياتها الدائبة■